

الفصل العاشر

عصر المماليك

لقد كان عصر المماليك بالنسبة للقبائل العربية التي استوطنت مصر امتداداً للعصر الأيوبي، مع الفارق المتمثل في رفض هؤلاء العربان لحكم المماليك؛ بدعوى أنهم عبيد قد اشتروا من أسواق النخاسة، فكيف لهم أن يتحكموا في مصائر هؤلاء العربان الأحرار النبلاء، ومن ثم اتحدت القبائل العربية كلها وثارَت على حكم المماليك منذ اعتلاء المعز أيبك التركماني للسلطة عام (١٢٥٠م)، مما دعا هذا الأخير إلى تجيش قوة من (٥٠٠٠) فارس لمحاربة البدو في دهروط^(١)، حيث تغلبوا عليهم واستولوا على خيولهم وأسلحتهم، غير أن التهديد الذي مثله المغول للعالم الإسلامي والأخطار التي كانت قد أحدثت بسوريا من جراء عدوان المغول عليها، وأجبرت المماليك على مهادنة العربان والالتجاء إليهم لمحاربة المغول هو الأمر الذي حدث في عصر المظفر قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م)، حيث جمع عربان الغربية والشرقية وضمهم إلى جيشه الذي قهر المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، واستمرت علاقات الطرفين بين شد وجذب طوال عصر الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ) الذي حارب العربان، واستفاد منهم في حروبه وغزواته كذلك، وهو ما حدث أيضاً في عصر ابن قلاوون رغم تقربه لهم وموادعتهم، ولقد لعب بدو مصر دورهم في سياق الأحداث العديدة التي وقعت في مصر منذ ذلك التاريخ حتى ظهور المماليك الشراكسة بقيادة الظاهر برقوق في سنة (٧٨٤هـ - ١٣٨٢ م)، حيث لم تتغير الأمور كثيراً عن سابقتها بالنسبة للعربان، فقد تواصلت الحملات ضدهم وإن كانت بدرجة أقل ولكنها أخذت شكل العمليات البوليسية التي

^(١) بليدة على شاطئ غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البهنسا، وهي الآن تابعة لمركز مغاغة إحدى قرى محافظة المنيا. معجم البلدان، ٢/ ٦٣٣.

أدت في نهاية المطاف إلى إضعاف هؤلاء العربان وتشتتهم، وتفاقم عمليات القهر ضدهم، والزَّج في السجن وإعدامهم شتقاً.

وقد كانت المواجهة محتومة الوقوع بين الطرفين، وظهر دهاء المماليك في تحركهم لضرب البدو في عقر دارهم في الوجه القبلي، ودارت المعركة في دهروط؛ ثم تحولوا بعد ذلك إلى الوجه البحري، ودارت رحا المعارك في سخا، ولم يخرج البدو من هاتين المعركتين منتصرين، بل بالعكس، فإن عام (٦٥١هـ - ١٢٥٣م)، كان بداية لأظلم فترة في تاريخهم، فإن المماليك قد سحقوا البدو وقضوا عليهم مادياً وسياسياً وإدارياً ومعنوياً.

١- فمادياً: يتمثل ذلك في المذابح الرهيبة التي وقعت على وجه الخصوص في عام (٧٠١ هـ - ١٣٠٢م) ضد البدو النازلين بين الجيزة وقوص، وبعدها في عام (٧٥٤ هـ - ١٣٥١م) ضد بدو الصعيد مرة أخرى، مع إضافة من هلك منهم فعلا خلال معركة دهروط، كما أن مثيلاتها التي وقعت في سخا قد قللت بدرجة كبيرة من بدو الوجه البحري، أما عن البدو الذين بقوا على قيد الحياة بعد هذه المجازر فإن السرد الممل لأعمال القمع التي قام بها المماليك طوال سَلْطَنَاتِهِم المتتالية ويظهر بوضوح لماذا فضلت القبائل التي لم تكن لديها نزعة الترحل والبداءة أن تبتعد وأن تتوغل في الصحارى هرباً من هؤلاء المماليك، ولكي لا يخضعوا لشريعتهم القاسية.

٢- سياسياً: فإن الوضع بالنسبة للبدو لم يكن أفضل؛ "فلا ناقة لهم ولا جمل" في تصريح أمور البلاد، فهم كما يقول العمري: "لم يكونوا في الذروة ولا في السنام عند السلاطين"، زد على ذلك أنهم لم يكن في استطاعتهم الوصول إلى الوظائف العامة كوظيفة الوالي مثلاً.

٣- وإدارياً: فإن المماليك قد اتخذوا من التدابير ما يكفل لهم إخضاع البدو والسيطرة عليهم، فقد كان السلاطين المماليك يثبتون أمر القبيلة بإصدار التقليد اللازم من ديوان الإنشاء مشفوعاً بالوصية كما كانت التقاليد تصدر بتعيين مقدمي

العربان، وكانوا يهتمون كذلك بمشيخة البدو في أنحاء البلاد، وربما كان من العلامات المميزة أن نرى السلطان وهو يستقبل أمير العربان ويخلع عليه الخلع والتشريف في الوقت الذي تقوم فيه تجريدة عساكره في تقتيل عربان قبيلته دون هوادة تطبيقاً للأوامر التي سبق أن أصدرها السلطان المملوكي المعز أيك والقاضية بمعاملة البدو بكل بأس وقوة.

٤- أما مغزياً: فربما كان من المهم أن ننبه هنا إلى الوضع القانوني الذي ألصقه المماليك بالبدو، هذا الوضع لا يخرج عن كونهم غرباء عن مصر، فقد كان رؤساء القبائل إذا تصادف قيامهم بزيارة إلى القاهرة، فإن المماليك كانت تنزلهم دار الضيافة وهي نفس الاستراحة الرسمية التي كان ينزل بها السفراء الأجانب والزوار نلأجانب عند زيارتهم لمصر، وكانوا كذلك يستقبلون من طرف المهندار، كما كان يحدث بالنسبة الأجانب والغرباء. وبمعنى آخر فإن المماليك كانوا ينظرون إلى البدو على أنهم جسم أجنبي عن مصر. وربما كان البدو لا يقولون في تلك عن هذا الجسم الأجنبي الذي كان يمثل المماليك أنفسهم، مع الفارق بأن البدو يتشرفون بالانحدار من نسب عربي مؤنث، وبأنهم رجال أحرار وشرفاء، ويمكن تفسير سياسة المماليك حيال البدو طبقاً لوجهة النظر هذه، لقد بيت المماليك الذنية على أن يحتفظوا لأنفسهم بالمكاسب التي منحتهم إياها انتصاراتهم العسكرية على القبائل، وذلك بشتى الطرق، بما في ذلك معاملتهم معاملة الغرباء النازلين أرض مصر بطريق الصدفة أو بشكل مؤقت، وبناء على ذلك فإن المماليك في كل ما يخص شئون البدو لم يتعاملوا إلا مع أمراء القبائل الذين كانوا يتبادلون معهم المراسلات التي كانت تخرج من ديوان الإنشاء، تلك المراسلات التي دفعت القلقشندي إلى شرح معاييرها واستعمالاتها الخاصة في موسوعة "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء"، وما تبع ذلك من ذكره لتلك الكمية الهامة من المعلومات عن البدو.

أما من ناحية أخيرة فإن المماليك هم المسؤولون عن الصورة التي ظهر بها البدوي، وهي صورة غير مشجعة كلها سمات سلبية، فقد قام المماليك بتقديم صورة

سبباً عن البدو وعمدوا إلى تشويهها وإظهار سلوكهم العادي الذي لا مفر منه على أنه لا شيء سوى حب النزاع والثأر، نظراً لثورات هؤلاء البدو التي كانوا يقومون بها مضطرين من أجل الاعتراض على المعاملة التي كانوا يلقونها على يد السلطة أو من أجل الاقتصاد لأنفسهم، ولكننا وعلى ضوء تاريخ هؤلاء البدو خلال الستمائة وخمسين عاماً التي أمضوها في مصر، وقبل وصول المماليك لم نعد نتقبل هذه الصورة الكاريكاتورية بحذافيرها التي أراد المماليك إصاقها بالبدو، وإنه لمن الصعب بالنسبة لبدو مصر الذين زرعوا الأرض الجرداء في الدلتا وعلى تخوم وادي النيل، والذين أدخلوا قصب السكر إلى البلاد، أن نرميهم بأنهم أعداء للزراعة أو بتهمة المخربين للقرى والمحاصيل، كما أنه من السخف كذلك أن ننتع هؤلاء البدو الذين تولوا حراسة الطرق الصحراوية، وأرشدوا المسافرين والحجاج والجيوش في هذه المسالك ووسط سكون الصحراء ووحشتها بأنهم لصوص وقطاع طرق بالوراثة، كما أنه من الصعب كذلك أن لا نعترف لهؤلاء البدو الذين اتهموا بأن لا حضارة لهم مع أنهم يتمتعون بأخلاقيات مميزة تقوم على احترام الإنسان، وعلى احترام الروابط التي تربط البدوي بأهله وعشيرته، وعلى احترام كلمته إذا ما وعد بالإضافة إلى ما يتمتع به من قيمة في المعارك، ومن شجاعة ومن خضوع تام إلى الله، ولا شك أن هذه كلها قيم أدبية أخلاقية عالية، لا مرأى فيها.

أما الوجه الآخر للعملة، فمن الصحيح أن البدوي في مصر قد مارس أنواعاً مخيفة من الأخذ بالثأر والانتقام، ولكن هل كان في ذلك هو وحيد عصره في اعتبار الموت هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للقصاص وألم تكن الوحشية هي الأمر العادي السائد في جميع أنواع تسوية الحسابات في ذلك العصر، الذي ظلت فيه الحياة فظة وشاقة بالنسبة لمعظم الناس؟ ولا يمكننا أن ننكر أن البدو كأية مجموعة بشرية أخرى، لم تكن تضم بين صفوفها عدداً من مثيري الشغب والقلق، ولقد اتبع بنو هلال وبنو سليم هذا الطريق عند وصولهم إلى مصر مع القرامطة، فكان هدفهم بعد خروجهم من جزيرة العرب الحصول على الغنائم والمكاسب مهما كانت

الوسيلة، وقد كان هذا على وجه التدقيق هو أحد الأسباب التي دعت الوزير اليازوري إلى التخلص منهم، ليضع حدًا لاضطراباتهم وقطعهم للطرق، وهي الأعمال التي ما فتئوا يرتكبونها في الوجه القبلي وفي الصحراوات المجاورة، أما أنهم قد سلبوا ونهبوا إفريقية (الشمال الإفريقي) فإن هذا ليس موضوعنا هنا، ولكن ينبغي علينا أن نلاحظ أن ما اتسمت به عاداتهم من عنف وشدة يتعارض مع السلوك الاعتيادي لغالبية سكان البدو عند توقعهم في مصر، ولقد نجم عن سياسة المماليك التي اتبعوها حيال البدو أمر هام لم يكن في حساباتهم: لقد تحول البدو إلى حالة الاستقرار والتحضر، وإن لم يكن جميعهم، فعلى الأقل جزء كبير منهم - وذلك بعد أن تبذرت أمامهم ضرورة الاختيار بين بدابة معذبة ومضطهدة وبين استقرار محتمل ومتسامح فهم قد أتركوا ما صنعت به مصر وترتيبها، التي حولتهم إلى أناس مستقرين، فإنه لا يغيب عن أذهاننا أن ثروات هؤلاء قد ظلت ثروات خيالية، وذلك دون حاجة إلى التحدث عن آثار واقع حالة التحضر التي دفعتهم إليها حاجتهم إلى استصلاح الأراضي طوال ما يزيد على خمسة قرون، وما تسبب عن ذلك من نتائج خضعوا لها بطريقة لا شعورية إلى الدرجة التي أصبح عندها عدد كبير من هؤلاء البدو لا يرون في أنفسهم سوي أنهم قد صاروا مصريين.

ولم يخلص العرب من هذه الحلقة الجهنمية سوي غزو العثمانيين لمصر في سنة (٩٢٢هـ - ١٥١٧م) الذين اتبعوا سياسة التهذنة والمصالحة حيال القبائل العربية، بل وصل الأمر بالسلطان سليمان (٩٢٨هـ) أن أرسل إلي رؤساء بعض هذه القبائل الحرير رمزاً للمحبة والسلام، وهو الأمر الذي لم يعرفوه أو يتذوقوه طوال ثلاثة قرون من الحكم المملوكي، ومن ثم انصهر البدو العرب منذ ذلك الحين في البوتقة المصرية التي استوعبت غيرهم من الأجناس المتعددة من أكراد وشركس وترك وقوقاز، وغير ذلك من الأجناس التي اتخذت مصر ملاذاً لها، بل مقاماً وموطناً.